

## حبل التريود **المشهود** المتقدم في الكهنة **توماس فامفينيس** نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

إن فترة التريودي هي حبل مشدود بين الإفراط والعوز، بين محبة الاختلاط والانشغال بالداخل، وبين الاستقلالية والطاعة. من خلال ترانيم التريودي وكلمات الآباء، تفضح الكنيسة المقدسة الإفراط في الأكل دون نظام، ولكنها تلفت الانتباه أيضًا إلى الإفراط في الصيام، الذي قد يتأتى من الكبرياء. إنها لا تريد استنفاد الجسد ببساطة، بل هي تريد تغيير المشاعر وجعل العقل يسيطر على الغضب والرغبة. ولهذا فإنها تطلب عقلها إلى الداخل، وتحث على السكوت والصلاة، كما على العطاء الرحيم. إنها تحث على طاعة إرادة الله وفي المسيح للخليقة كلها، لأن هذه هي حرية المحبة.

إن نمو الحياة الداخلية والعلاقات الشخصية، وكذلك الطاعة، في ظل الشروط التي وضعها آباء الكنيسة، وبالاستقلال عن كل ما ليس الله، هما معاً ومن دون تناقض. في الواقع، معيار أصالة الحياة الداخلية هو العلاقات الصحيحة بين الأشخاص، واختبار العلاقات الشخصية الصحيحة هو، بحسب تعبير الصلاة التي نقرأها بعد المناولة الإلهية، سلام قوى النفس المرتبط بـ "استنارة أعين قلوبنا الروحية"، اتّضاع "فكرنا"، والتحرر من أسر الأفكار. كما أن الطاعة الحقيقية لأعراف الكنيسة وقوانينها التي شكّلها الروح القدس، هي تنسيق وجودنا مع حرية كوننا أبناء الله. مع ذلك، توجد في جماعة المؤمنين حركات وتغييرات مستقلة تقضي على جامعية أسلوب الحياة الكنسي. وبهذا، يتزامن الانشغال بالداخل مع الجمود أو البطالة، ما يقلل من شأنه فيتم استبداله بالأنشطة الاجتماعية. وعلى عكس ذلك، تعتبر الخدمة والعمل الاجتماعي أدنى من الحياة الهدوئية ويتم تفسيرهما على أنهما تعبير عن حالة روحية مزيفة. إلى ذلك، يُنظر إلى الطاعة على أنها عقاب وأن الحرية تُختبر بالفوضى.

هذه الحركات المستقلة هي نتائج للتغير في الخلق والإيمان، كما في تقليد الكنيسة الأرثوذكسية الليتورجي والنسكي. في الكنيسة الأرثوذكسية، يرتبط الإيمان بالعبادة، ما يفترض الحياة النسكية وطاعة البنية التراتبية للجسم الكنسي. إن مراتب الرئاسات في الكنيسة هي التي تُعلّم شعب الله الحياة في المسيح. وبالتالي، فإن محبة الاختلاط والاهتمام بداخل الإنسان، كما الطاعة والحرية، ليست متعارضة ولا ملتبسة في حياة وتعاليم كنيستنا، بل إن إحداها تفترض الأخرى. بالواقع، البعض لا يستبعد هذه أو تلك، بل يخلط، على سبيل المثال، بين "الداخلي" و"الخارجي". أي أنهم يعتبرون الحياة الداخلية تلهية للأعمال الخارجية، مما ينتج عنه التحرر المطلوب للنوس من كل ما هو مخلوق، في رحلته إلى الصلاة المستمرة، ساعياً إليها بالأعمال المحدودة والمادية، المستعبدة لقوانين الفساد وأحكام الدولة. إنهم ينسون أن المسيح تجسّد طواعية، خاضعاً ليس للآب السماوي وحسب، بل أيضاً لقوانين الفساد وحتى لقوانين الدولة الضريبية.

في النهاية، ليس ابن الكنيسة مجرد شخص مُقتلَعاً من العالم، ولا هو الشخص الذي يختار أن يسلك في العالم. ليس هو الشخص الذي يحوّل البيئة المحيطة بالوسائل التقنية، أو الذي ينكر الوسائل التقنية والكماليات الإلكترونية الحديثة، بل هو الشخص الذي، بقوة نعمة الله، يحوّل قلبه ويختبر كل الخليقة كمعبّد لله. إنه هو الذي يجعل من نفسه هيكلًا حيًا، بطاعة حرة وصادقة للكنيسة، ويساعد الآخرين في حياته وسلوكه، ليقمهم أيضًا هيكل الله إذ يتقدّسون.

في هذا العمل العظيم المتمثّل في جعل أنفسنا والخليقة كنسيين، لدينا فترة التريودي بمثابة مساعدة فعّالة. إن الصيام عن الطعام رئيسي، لكن معنى الصوم لا يقتصر على هذا. إنه يظهر في أسلوب حياتنا. إنّه يعلمنا تحديداً كيف على الناس أن يعيشوا عندما يطلبون الله قبل القيامة المشتركة. هذا هو السبب في أننا مدعوون إلى خوض الجهاد الحسن للصيام، حتى ندخل إلى حلبة الفضائل - أي الصوم الكبير-

ليس فقط بـ"سيف" الصوم الذي "يقطع الشر عن القلب"، بل أيضاً بكل أسلحة الإيمان كالصلاة والصدقة. حتى الصوم عن الطعام فسيبدو غير كافٍ، إن لم يقترن بالكثير من الجهاد ضد الأهواء، حيث تقول إحدى التراتيل التمهيدية للصوم: "يا نفس، إذا صمت عن الأغذية ولم تنتق من الآلام فباطلاً تفرحين بترك المآكل. لأن الصيام إن لم يصر علةً لتقويمك فإنك تُمقتين من الله ككاذبةٍ وتضاهين الشياطين الأرياء الذين لا يأكلون بالكلية" (صباح يوم الأربعاء من أسبوع مرفع الجبن).

إلى هذا، فإن لمحتوى الصوم الأرثوذكسي عمق وعرض عظيمين. يقدم القديس يوحنا السيناوي، في كتابه "السلم"، الذي يُقرأ عادةً في الأديار الأرثوذكسية خلال الصوم الكبير، تعريفاً شاملاً للصوم، يوضح عمقه وعرضه. يكتب القديس يوحنا: "الصوم هو اقتسار للطبيعة، وإقصاء لكل ما يستلذه الحلق، وبتر لالتهاب الشهوة، وقطع للأفكار السيئة، وتحرر من الأحلام الليلية، وتنقية للصلاة، ونور للنفس، وبقظة للذهن، وجلاء لقساوة القلب، وباب للخوع، وتنهيد منسحق، وتحسر فرح، وتهدة للثرثرة، وسبيل للسكينة، وحارس للطاعة، وخفة للنوم، وعافية للجسد، ووسيط للاهوى، وغفران للخطايا، وباب للفردوس والنعيم" (المقالة الرابعة عشرة: ٣٤).

ضمن هذه الكلمات المختصرة والموجزة للقديس يوحنا السيناوي، نجد المعنى الكامل للصوم الأرثوذكسي. لن أحلل المقطع، بل سوف أشير فقط إلى أنه عنف ضد الطبيعة البشرية الساقطة. النسك يخضع الجسد للنوس المتحرر من الأفكار الشريرة والذي يصلي بطهارة. هذا البعد الداخلي للصوم مرتبط بالندم، وتنهيد التوبة المتواضع وانسحاق القلب، غير المنغمس في الإحباط والحزن، بل الذي يبتكر بهجة الرجاء، بأن الخطايا سوف تُغفر ويُفتح باب الجنة. وشيء مهم في العلاقات الشخصية: الصوم هو "تهدة للثرثرة، وسبيل للسكينة، وحارس للطاعة".

الكنيسة لا تتغذى بالكلمات، خاصةً الكلمات المضطربة أو الدهرية، بل هي تتغذى من كلمات الكلمة. كل الناس من حولنا، وأنفسنا أيضاً، يريدون بضع كلمات، على أن تكون صادرة عن صمت القلب الذي يطيع بكل عمقها إرادة الله لصنع السلام.

S

o  
u  
r  
c  
e

Εκκλησιαστική Παρεμβάση, "Η σχοινοβάσια του Τριωδίου", Τεύχος 37 - Φεβρουάριος 1999